الفصل الثالث والعشرون

عودة إلى شراغب

اتجهنا ناحية الشمال في آخر أيام نوفمبر. كان من الأجدر لنا أن نتبع الحدود من عند ممر علب وعبر جبال تهامة إلى البحر، غير أن عدة أسباب حالت دون ذلك، خاصة حاجتنا إلى مرشدين، واستحالة أن نجد أحداً لهذه المهمة في شريط التلال العارية، والسلاسل التي تقع بين علب وفيفا. كان عليَّ نتيجة لذلك أن أترك فراغاً صغيراً في الخريطة الفعلية للحدود، بالدرجة التي تدل على أن الأمر ثانوي الأهمية، بينما كان المخطط الذي حددته لنا السلطات هو أن يحقق لي رؤية الكثير من بلاد تهامة، أكثر مما قد فعلت الآن. كان الممر العملي التالي الذي يقع إلى الشمال من علبٍ، هو ممر عقبة شراغب بالقرب من قرية حوط في وادي رحة، ولكي نصل إلى هناك فعلينا أن نعود عبر ظهران وحوط نفسها، برغم أنه إلى جانب تماسنا بهذين الموقعين وبطلحة، فإن طريق عودتنا كان يجري فوق بلاد جديدة علينا مما مكنني من إكمال مسح الهضبة.

يقع أول أجزائه، من عند علب إلى ظهران عن طريق درب البن، قريباً أكثر من الجانب الشرقي للقلنسوة البازلتية، ويكون الجرف الفعلي وهو منبع كل خطوط الصرف التي تجري شرقاً إلى الصحراء وغرباً إلى البحر. كانت تكسو سماء تهامة سحب منخفضة إلى البعيد ناحية الشمال الغربي مع بداية مسيرتنا. غير أن قمم التلال كانت واضحة، وكان أمامنا منظر رائع للجبال الغربية. لقد سرت راجلاً على الحافة الغربية للقلنسوة البازلتية المكسوة بالحصى، إلى موقع يطل على وادي

حنكة إلى أسفل، وعلى قرية مريسيقة خلف تل بتار عند ملتقى مسيلة مع حنكة. ومن هذا الموقع أمكننا الحصول على منظر عام، لكل النقاط التي بُنيت عليها الحدود إلى قرب كومة الحجارة الحدودية لحمرة، على العرن الجنوبي لسلسلة طويلة عالية، ذات القمم الأربعة البارزة، التي تقع ناحية الغرب من موقع المشاهدة، والتي يسميها مرشدي: منجد أو فرعات. وتوجد إلى ما يلي هذه، سلسلة أخرى، وعدد من سلاسل تغطي كتل كل من ظهران، وفيفا، وزهوان، وينتهي ذيلها ناحية الشمال الغربي في جرف مرتفع شديد الانحدار في وادي ضلع بالقرب من أبها. كان مرشداي قليلي المعرفة بالأسماء، ولم أكن مقتنعاً بتعريفهم للقمم الفردية من هذا الموقع، وكان عليَّ أن أتركها لفحص أكثر دقة في وقت لاحق في جولتي. ارتفعنا الآن إلى قمة قسم حضر من القلنسوة البازلتية التي من عندها كنت أشاهد منظراً رائعاً للمنحدر الشديد للجرف أسفل إلى الوادي. وكانت الصخور على عمق ٢٠٠ أو ٣٠٠ قدم تحت قلنسوة البازلت من صخر رملي، حيث تمتد إلى ١٠٠٠ قدم أو أكثر إلى أسفل والتي يمكن رؤية الشست تحتها إلى مستوى الوادي حوالي ٢٠٠٠ قدم من تحتنا. كان هذا الشست هو المادة الرئيسة التي تكونت منها معظم جبال تهامة، غير أن الحجر الرملي هنا وهناك يتعارض في شكل سلاسل عالية شديدة الانحدار وعظيمة.

قضينا حوالي ثلاث ساعات فوق هذه الأميال القليلة لمسيرتنا نستمتع بالمنظر قبل أن نهبط آخر الأمر لنلحق بقافلة الحمير عند أسفل القلنسوة البازلتية على الجانب الشرقي. وحجبت هذه السلسلة الرؤيا عنا تماماً في اتجاه الغرب أثناء مسيرتنا، ولم نر بعد ذلك تهامة، إلاَّ بعد وصولنا إلى ممر شراغب بعد أيام قليلة. لقد أصبحنا فوق طريق البن الذي يخترق هذه البلاد البازلتية الصعبة التي تصب

كلها تجاه الشرق عبر عدد لا يحصى من المسايل والمضايق التي جرّحت سطح الصخرة الرملي. كان أول هذه هو شعيب حضر الذي ينحدر من عند بازلت حضر على يسارنا وينساب إلى أسفل، ليتصل في نهاية الأمر مع شعيب دج، الذي بدوره يتصل مع شعيب معس وهو رافد لوادي قتم الذي يجري إلى حبونا. وخرجنا من منطقة مستجمع الأمطار لوادي نجران. ثم أوصلنا منحدر صخري صعب خلال خمس دقائق إلى أسفل بطن وادي حضر الصخرية التي كانت قد احتفظت بالعديد من البرك المائية، ثم تسلقنا بعد عبورنا لهذه المنطقة إلى السفح المقابل، وهو صعب أيضاً والذي من عند قمته يواصل طريق القوافل المشهور اتجاهه إلى أسفل حتى منخفض أم الكوم الضحل، وهو رافد لوادي قتم.

لقد أوصلنا هذا بدوره إلى مضيق ضيق، تعلّمه كومة حجارة، والذي من عنده هبطنا تجاه رأس شعيب حليم قضض، وهو رافد مقاطع لقتم، الذي صعدنا من عند جانبه البعيد عبر ممر ضيق تحيط به الصخور يسمى رهوات المسوَّان إلى رأس شعيب أم سرب. هبط طريقنا مع هذا الوادي عبر منظر رائع من جلاميد صخرية رملية ممزقة، إلى ممر سلحات الضيق الذي عنده يشق المسيل طريقاً له عبر الصخور. ويرتفع هذا المسيل في الجوانب المشققة للجزء الشمالي البعيد لقلنسوة حضر البازلتية التي كانت في هذا الوقت محتفظة بكمية ضخمة من المياه في بركها الصخرية العديدة في غطاء نباتي مزدهر من أشجار القمر وأشجار أخرى، بما في ذلك نسبة معتبرة من أشجار العرعر.

يتصل سرب مع مسيل سبت في مكان ما إلى ما يلي الممر الذي ينحدر من جهة الشمال ثم يتجه ناحية الشرق فوق بطن صخري ضيق يقع بين الجلاميد. ثم ينبعج بعد ذلك إلى أرض واسعة ذات شجيرات في الموقع الذي يتصل فيه مع

شعيب قمقم القادم من جهة الشمال، في انحداره نحو وادي قتم، الذي يكون قمقم أحد روافده الواقعة في أقصى الشمال. لقد سلكناه إلى قرب رأسه في مسيل نجد حطب الذي ينبع من الجانب البازلتي لتل مرعود على مسافة نصف الميل إلى يسارنا. ويقع رأس مسيل قمقم - نجد حطب المعقد على ارتفاع ٧٦٥٠ قدماً فوق مستوى البحر، ويمكن رؤية المسيل الذي ينطلق إلى أسفل في اتجاه الشمال الغربي من عند الجانب البعيد للقاسم، ويكون الرافد الجنوبي الأقصى لوادي قبضة. ويسمى أيضاً، على أية حال، باسم قمقم ويقوم بحمل الطريق لمسافة نصف ميل إلى أن يدور بعيداً عنه ناحية الشرق. ثم يستمر الطريق الآن فوق الأرض المرتفعة لحلقة من أرض مرتفعة مكسرة تكوّن رأسه، ويدخل فيما يليها إلى رافد آخر لقبضة يسمى حضن قرزان، ليتبع واديه الصعب، لنرتفع مرة أخرى فيما يليه إلى قطع في رأس وادي عرين، وهو مجرى ظهران.

تفتت السلسلة البازلتية على يسارنا إلى سهل منحدر حجري مائل بدرجة حادة، لا تسمح برؤية جبال تهامة، وممزق بالعديد من خطوط الصرف، مكونة الرأس العريضة لعرين. ويقف أمامنا الآن - قليلاً تجاه الجنوب الغربي - الهرم المسطبي البارز المسمى رميح، وهو أول القمم الكبيرة للجرف. ويجري مجرى سعرة - وهو رافد لعرين - الضحل فوق هذا السهل الميت الذي يقف في مجراه الأعلى برج مراقبة منعزل لقرية قصبه بن حيان البارزة. مررنا بها بعد فترة على مسافة نصف ميل إلى يسارنا ونحن نتابع مجرى سعرة الذي اتجه تدريجياً شرقاً. ثم عبرنا إلى جانبه الأيسر بعد فترة، أعلى الموقع الذي يدخل فيه مضيقاً عميقاً ضيقاً، ثم صعدنا جانب تل صعب بازلتي عليه قلنسوة صخر رملي. يشق ممر مدر طريقه بالقرب من القمة، عبر القلنسوة وبرز لنا من عند الممر مضيق سعرة العميق

الذي يقع على بعد ٥٠٠ قدم أسفلنا على اليمين. ولا نستطيع رؤية ظهران نفسها من هذا الموقع، إلا أننا نرى القرى فيما يليها في عرين الأسفل وكذلك العلامات الأرضية المختلفة المألوفة مثل السمة التلية البارزة لاجمعين، وقد كانت قاعدة الحجر الصخري هنا من بوكسيت إلا أن أجزاءها العليا كانت داكنة الحمرة حديدية، وفي بعض الأجزاء تكون سوداء بسبب عوامل الطقس.

قادنا ممر أسفل إلى حيث تتصل ثلاثة مسايل لتكون البداية الفعلية لوادي عرين وهي عين العبس، وعرير، وذات ريح على يسارنا الذي يتصل به شعيب سعرة من الجانب الأيمن قليلاً إلى أسفل. توقفنا قليلاً فوق هذا الملتقى عند طرف البساتين والحقول لقرية سعرة، قبل أن نواصل مسيرتنا خلالها إلى قرية الحصن الجميلة، التي تقوم على قمة حاجز صخري منعزل، عبر الطرف النهائي لمجرى سعرة الذي يدخل عرين التي تقع أسفله. عبرنا الآن إلى الجانب الأيسر لوادي عرين لنصل إلى البساتين العليا لظهران نفسها ومنها إلى موقع معسكرنا الجديد بجوار المجرى قليلاً أعلى جانبه الأيمن. وكان التحول الأخير في الطقس قد أملى علينا أنه من الحكمة ألاَّ يقام المعسكر في بطن الوادي كما كانت عادتنا، بسبب احتمال قدوم سيل أثناء الليل.

لقد سررنا بعودتنا إلى البلدة مرة أخرى، بعد عشرة أيام مرهقة في الريف. وكانت الأخبار التي وصلتني عند وصولي سارة بحق. فقد استطاع جميل اليهودي أن يعيد النابض التانجستي مزولتي للعمل وقد ظللت أنتظر قدوم الليل لأختبر الأداة التي تم إصلاحها ولاختبار الملاحظات الفعلية. برهنت هذه الاختبارات أن العملية كانت ناجحة بحق، كما يشهد بذلك الموقع المسجل الآن لظهران – والعديد من الأماكن التي تمت زيارتها بعد هذا التاريخ – وأشعر أن علم الجغرافيا مدين بالكثير

لجميل وأن هذا الشكر يجب أن يدخل في السجل العام. توقفت ملاحظاتي للنجوم بعد أسابيع بسبب تلف بطاريات الراديو. إلاَّ أنه قبل ذلك الوقت، أمكنني إدخال نقاط مهمة إلى الخريطة. اكتسب جميل شكري أيضاً لإصلاحه مفصل نظارتي. لم نتأخر كثيراً في ظهران إلاَّ أنني قد سعدت بليلتين في أمنها النسبي، وذلك لأنني لا أزال أحس بالتعب وغير مرتاح بمعنى الكلمة، وقد برزت بثرة ذات حجم ضخم في الأصبع الأوسط لإحدى يدي. تمكنت من الوصول إلى مخزوني الشحيح للأدوية الذي أمكنني أن أحاول تأثيرات دواء ستانوكسيل الذي شفاني منذ عدة سنوات في جدة من عدة بثرات في سرعة مذهلة غير أن الدواء قد خذلني الآن، وبقية مراحل علاجي قد تركتها للوقت وللصدفة.

نحن الآن في منتصف رمضان ولم أشرب قطرة ماء واحدة منذ بدايته. لقد حافظت على صحتي حتى الآن، إلاَّ من هذه البثور الحديثة والتقرحات وكلاهما يعزى إلى تأثير الهرش، والكدمات، والصقيع ووعثاء السفر، ولا أزال أعتقد أن تحاشي الماء هو سر نجاح رمضان، بينما العديد من الصائمين يعرضون أنفسهم للمرض مع جرعات كبيرة للماء فوق معدة خاوية عند افطارهم في نهاية اليوم مع غروب الشمس. أعتقد أن الشاي والتبغ هما المكونات المثالية لإفطار رمضان، مع الفاكهة إن وجدت. دعانا محمد بن بريكان لتناول طعام الإفطار والعشاء معه في هذه المناسبة وقد أمدنا بالعنب للإفطار، وبلحوم الضأن والأرز للعشاء. لقد حضر لسماع الراديو جمهور غفير بما في ذلك جميل اليهودي ومعه ابنه وحفيده. وقد أدرت مؤشر الراديو لمصلحتهم، لإذاعة الأخبار العبرية من القدس، لأكتشف -كما في نجران- أنهم قد استوعبوا ما قيل على أساس أنه لهجة اشكانزية ولم يجدوا صعوبة في استيعاب الأخبار العربية التي اشتملت هذا المساء على تقرير طويل

لمناشط اللجنة الملكية في فلسطين، وأخبار الحرب في إسبانيا دون إكثار الحديث عن تدمير القصر البللوري بواسطة النيران.

كنت سعيداً بهذه الزيارة الثانية لظهران لأقيِّم حالتها العامة بالنسبة لمناخها الجغرافي والجيولوجي التي تحسنت معرفتنا له. يقع الجزء الرئيس المأهول للوادي، وكذلك البلدة، داخل حوض واسع تحيط به تلال بركانية أو ناريه عدا ناحية الغرب والجنوب الغربي حيث يكون شريط من هضبات منها جيث، وجفجفان، وقردة، وحمرة، وسلسلة، تواصل الأخيرة تجاه الشمال، الحدود الخارجية لقلنسوة الحجر الرملي التي تعلو قاعدة الحجر الناري للأرض المرتفعة وهو نفسه يقع أسفل قلنسوة بازلتية على الجرف على امتداد طرفه الغربي. ويبدو أن طبقة المغر أو البوكسيت تقع وسطا بين الحجر الصخري والحجر الناري. يتكون حوض ظهران – الذي يبلغ قطره ثلاثة أميال – من تلال جرانيتية متدحرجة بينما تقع على الشاطئ الأيمن في مواجهة البلدة، مساحة معتبرة عليها كتل صخرية سوداء مبعثرة، ربما بازلتية أو شستية.

تقف شجرتان من الطرفاء بين هذه وبالقرب من مجرى الوادي على أرض مرتفعة وتقع بقربهما جلاميد جرانيتية مستديرة في حلقتين تامتين، يتراوح قطرهما بين ١,٥ قدم و٢ قدم. تقول الروايات المحلية أن هذه الجلاميد قد تم وضعها بهذه الطريقة حول شجرة طرفاء حديثة الغرس في مركز الدائرة الداخلية لحمايتها من الرعي بواسطة الجمال! مهما كان الأمر، فإن شجرة الطرفاء قد ماتت بسبب حادث لم يسجل، وفي رأيي أن الشجرتين العائشتين الكاملتي النمو وإن الدائرتين المزدوجتين من صخور جلاميد، كان الغرض الأساسي منها كلها هو مغزى ديني أو احتفالي، ويمكن أن تكون الدوائر ضريحاً لرجل دين أو رئيس محلي، وأن

تكون الأشجار (أو ما سبقها) أشياء للعبادة الوثنية التي نعرف أنها استمرت إلى عصر الإسلام في العديد من أجزاء الجزيرة العربية مثل: وادي حنيفة.

تحيط بظهران روايات محلية تعود إلى عصر بني هلال، هذه القبيلة التي يعزى إليها أمر البئر الذي يوجد داخل المسجد والبئر الآخر الذي يوجد بالقرب من مجرى السيل شرق البلدة. ويسمى البئر الأخير هذا باسم بئر أم سيع -أو بصفة عامة بئر الجن-، ويقال إنه مسكون بأرواح شريرة- قيل لي إن الكاهن الذي كان يتنبأ بموقع الماء والذي حضر إلى هذا الموقع أثناء عمله، قد هرب منه هلعاً لسبب لم يفصح عنه. لم تؤثر هذه الموانع على شخص أبله اسمه حسين بن محسن، الذي تطوع أن يصحبني إلى الموقع مقابل ريال واحد، والذي قال إنه لا مانع لديه أن يتم تصويره وهو يجلس «فوق الجن»، كان البئر معطلاً لمدة طويلة، وقد تساقط بناؤه الفوقي إلى الداخل الذي يبلغ عمقه الآن حوالي عشرة أقدام بسبب الركام والحجارة التي سقطت فيه، فأصبح داخل البئر كأنه سطح تربة وقد نمت عليها أشجار بالميتو من البذرة.

ويقال إن المسجد قد تم بناؤه في الأيام القديمة لسعود الأول[١] حين امتد النفوذ السعودي بعيداً إلى داخل اليمن. كان البناء صغيراً ولكنه كان مميزاً، ولقد زخرفت جدرانه بالجبس، وقد فصل جزء منه ليكون مكاناً للوضوء، الذي يصله الماء عن طريق جداول من البئر الذي يغطس صهريجه إلى عمق ثمان قامات عبر صخور طبيعية إلى ماء مستديم عمقه ثمان قامات. لم تكن للمسجد مئذنة أو أية ضرب من الزينة، بينما ظل مكان الصلاة مغلقاً بصفة دائمة، غير أن هنالك مسطبة مكشوفة أمامها، مجهزة للزوار لأجل العبادة.

(١) الإمام سعود بن عبدالعزيز بن محمد بن سعود. (المراجعون).

تصنف تجارة البن في ظهران إلى مـجموعتين متجهـتين إلى الحجاز وإلى نجد، وكلاهما يمـر ببيشه. يذهب الممـثلون التجاريون من ظهران إلى اليـمن، لشراء المواد وإحضارها معهم إلى هنا عبر الضرائب والجـمارك بنسبة ٢٠٠ حمل (حمولة الجمل) في كل شهر، وكل حمل يعادل ٧٢ مداً أو حوالـي ٥٥٤ كيلوجراماً. انخفض سعر الحمل هذه الأيام إلى ٦٠ ريالاً ماريا تـريزا، غير أن التقدير الضـرائبي الرسمي كان ١٤٥ ريال ماريا تريزا، والتقدير الجمركي كان بنسبة ٢٠٪ وتقديره ٢٩ ريالاً ماريا تريزا إلى جانب رسوم مـصاريف تقدر بثلاثة ريالات مـاريا تريزا لشهادة التخـريجية التي تثبت أن الرسوم قـد تم دفعها. يدفع المورد على هذا الأساس، لما اشتـراه بسعر ٦٠ ريالاً ماريا تريزا، ٣٢ ريالاً أخرى مقابل الضرائب ويضاف إلى ذلك تكلفة النقل بالجمال قبل أن تصل البضاعة إلى بائع القطاعي الذي يعرضها للمستهلك. إن تقدير الحكومـة لمبلغ ١٤٥ ريالاً ماريا تريزا للحـمل الواحـد كان معـادلاً لسعـر التجـزئة (القطاعي) للـبن في مكة. ويبلغ الدخل الشـهـري لظهـران من البن فـقط حـوالي ٦٠٠٠–٧٠٠٠ ريال ماريا تريزا في المتوسط.

قمنا برفع المعسكر في الثاني من ديسمـبر لنواصل تجوالنا، وبدأنا بالسير فوق وادي عرين في اتجاه الشرق فوق ربوات متموجة في لطف إلى تل جيث الذي يقع على بعـد يقل عن الميلين وإلى يمين موقـعنا. ثم عـبرنا الوادي فـوق قرية حـياج الصغيـرة التي تقع عند منحنى عريض للوادي، ثم عبرناه مـرة أخرى إلى الجانب الأيمن قليلاً أعلى من حيدان حـيث توجد مساحات معتبرة، كـما كان الحال حول دار العرق للذرة الصـفراء والبـساتين مع كثـافة لنمـو شجيـرات الأثل في المجرى نفسه. دخلنا المجرى مرة أخرى أسفل دار العرق، وتتبعناه أولاً عبر ممر من صخور جرانيتية وبازلتية، وفيما يلي هذه، عبر حقول مبطنة بالحجارة، وشارع على جانبيه أشـجار الأثل والطرفـاء التي يخترقهـا بطن السـيل الرملي الـذي يـبلغ عـرضـه

٥٠ ياردة. ووصلنا بعد مسيرة متقطعة استغرقت نصف ساعة من عند دار العرق، إلى موقع التقاء كل من وادي قبضة ووادي قتم مع وادي عرين في مساحة رملية عريضة في وسط غابة حقيقية من أثل وطرفاء. لقد تحدد موقع دخول وادي قبضة، بوجود شريط طويل من المياه تعلوه طبقة نبات أخضر لزج، والذي يبعد بحوالي ١٠٠ ياردة فوق فم قتم، الذي وقفت في مجراه على ارتفاع ٣٠٠ قدم قرية شحك الصغيرة.

وصلنا على هذا الملتقى بعد دقائق قليلة لأول حقول مجزعة، والذي كانت أولى قراه تسمى عطفة، تقف قليلاً إلى الخلف على الجانب الأيمن، ثم توقفنا قليلاً قبل معزب على الجانب المقابل، عند الموقع الذي ينحدر فيه بطن الوادي إلى حوالي ٢٠ قدماً من فوق سد جيد البناء من مواد بازلتية. وتوجد عند قاعدة السد بركة من مياه تعلوها طبقة نبات لزجة خضراء، تكاد تكون مياهها راكدة، مع سيلان خفيف يخرج من عند نهايتها السفلى متجهاً ناحية قرية ثغر التي تبعد قليلاً مع اتجاه الوادي على الجانب الأيسر. كانت المياه المملوءة بكائنات دقيقة تشبه سمك المنوة، وبعضها ذو حجم كبير، وكان يقفز باستمرار ناحية الذباب الصغير المحلّق فوق السطح، بينما طارت من سطح الماء أعداد كبيرة من طيور الماء وذلك حين قدومنا، من بينها البط وأبو مطرقة ومختلف أصناف طائر المخوض إلى جانب هذه يوجد أيضاً الحمام والقنابر المتوّجة وطيور أخرى مائية. لقد كان بطن الوادي أسفل السد، من صخر أزرق مكشوف، أصبح ناعماً بفعل حركة المياه ومبطناً هنا وهناك بطبقات من الرمل والعشب الأخضر والقصب -وكان منظراً طبيعياً مريحاً على خلفية من أشجار تين عارية ومبانٍ بسيطة. عدنا مرة أخرى إلى طريق الفيل، من عند ثغر، الذي تقع أسفله آخر قرى مجزعة وهما سند ومخلبة على بعد ٤٠٠ أو ٥٠٠ ياردة مع اتجاه

أسفل الوادي، الذي يقبل ماراً بتل مسلولة على بعد ميل واحد تجاه الجنوب الشرقي، ثم يعبر في هذا الموقع وادي عرين في مسيرته إلى الشمال. ويجري الوادي نفسه من هنا إلى قرية قرن ثم إلى وادي خنق ومنه إلى حبونا. ويختفي سيلان الماء في مقابل مخلبة، وبعد ذلك يستمر الوادي وهو جاف تماماً إلى الأمام.

لقد سلكنا الآن درب الفيل فوق الخطوط الصرفية الضحلة التي كونتها الخطوط الكفافية للأرض الحجرية التي كانت تنمو فيها شجيرة الشرفث في غزارة. لقد هبطنا من أعلى الهضبات – وبالمناسبة فإن مجزعة تقع على مسافة ١٥٠ قدماً أسفل ظهران– إلى بطن شعيب قوية – أحد روافد عرين – وامتطينا ظهور الدواب إلى أعلى بطن الوادي الحجري، الذي توجد فيه أشجار العلب منتشرة هنا وهناك. لقد كونت أشجار العلب هذه وأشجار الطلح منظراً ساحراً للغابة وعلى امتدادها وقد كانت حرارة الشمس عالية، مسلطة على ظهورنا ونحن نقود دوابنا عند الظهر. لقد استخدمت سيارات الأمير سعود هذا الطريق ولا تزال آثارها مشاهدة في الأجزاء الصلبة من الوادي. يتصل مجرى حضه العريض على بعد، مع قوية من عند رأسه في سلسلة تبعد حوالي ٢ ميلين ناحية الشمال، وقد كنا قد تأخرنا بضع دقائق بسبب محاولاتي الفاشلة للإمساك بفراشة كبيرة من جنس البابليو. ثم يضيق الوادي تدريجياً مما يلي موقع دخول مصرف ضحل يسمى ركايه إلى جهة اليسار من موقعنا، لقد تباينت رتابة المنظر الكئيب الذي يقع أمامنا بتخلل قطيع كبير لأغنام بيضاء وماعز أسود متجهة إلى موطنها في دار العرق تحت حراسة فتاة واحدة، كاشفة الرأس ومتأنقة في عباءة جديدة مصبوغة بالنيلة الداكنة.

يمر طريق الفيل فوق قناة مبنية تصل دخول مسيل ثانوي، قبل وصولنا إلى رأس قوية. كان ارتفاع المضيق فوق قمة قوية حوالي ٧١٠٠ قدم فوق سطح

البحر، بينما هبطنا من الجانب الآخر إلى شعيب بيح، وهو حوض عار وضحل في الأرض الحجرية التي تحيط به والتي يشق طريقه عبرها، خلال ممر شستي ضيق مملوء بقصب الحلفا والنمص. ويقع الثغب المائي الذي يسمى مضره والذي ثبتت أهميتة لموقعه الاستراتيجي بجانب الطريق بكثرة النقوش قديمها وحديثها، على سطوح جدرانه الشستيه الشبيهة بالألواح.

لقد تآكلت النقوش والرسوم القديمة الثمودية بفعل عوامل التعرية وكانت أهمية النقوش العربية الكوفية متدنية. ينبع الماء من العين ويصل إلى العديد من البرك التي تقع بالقرب من رأس هذا الممر ويكون فيضها سطوحاً مائية يكسوها نبات لزج، وتجري لمسافة ٣٠٠ أو ٤٠٠ ياردة قبل أن تدخل مرة أخرى إلى أسفل السطح الحصوي للمجرى، وذلك أثناء اتساعه خارج الممر. قابلتنا مجموعة من الناس، بعد أن واصلنا مسيرتنا، وهم عائدون إلى مجزعة من عند سوق الأربعاء في طلحة. لقد تركنا طريق الفيل يأخذ اتجاهه شمالاً، تقريباً بعد خروجنا من الممر الصخري، وواصلنا سيرنا فوق مجري بيح الثعباني إلى حيث مزارع التين والأثل في شعبة، وإلى ما يليها توجد قرية طرف الضراع التي تسيطر على رأس مضيق ضيقة الكئيب. لقد كانت مستوطنة صغيرة، غير منظمة، وغير مؤثرة ذات حقول واسعة وبساتين، وكانت تنمو فيها نسبة غير عادية من أشجار الخوخ، ولقد رأيت في الصباح الباكر، بالمناسبة، شجرة خوخ مزهرة في مجزعة. وتحتوي قرية طرف الضراع على حوالي ٥٠ إلى ٦٠ منزلاً إلى جانب مبان برجية مبعثرة بين الحقول والبساتين. وتسمى الأرض التي تقف عليها «غيل»، برغم أنني لم أر أثراً لمياه جارية في الأجزاء السفلى من المجاري المختلفة التي تلتقي عند رأس مضيق ضيقة. كان هنالك إلى جانب بيح، كل من عر ودرا وقحيف وحمرة.

استغرق وصولنا إلى أبراج مزارع محجري وإلى ما يليها حوالي نصف الساعة، مارين باستمرار خلال الحقول أو البساتين، ثم وصلنا إلى مزرعة الأثل في طلحة، وفيما يليها من الأقسام المختلفة لقرية طلحة نفسها، حيث وجدنا ميدان السوق وقد ازدحم بالناس وهم يتحدثون حول تجارة اليوم وينتظرون غروب الشمس ليوم صيام مرهق آخر. واصلنا سيرنا لنصل إلى موقع معسكرنا على الطرف البعيد لحقول طلحة فوق الرمل الأحمر لوادي أفياض، وعلى الجانب المحجوب من الرياح سور من أشجار التين العارية. بدأنا مسيرة اليوم التالي بعد تأخير قليل بسبب ملاحقة طيور الحجل، والتي أفرزت الحصول على زوج منه، وفي أعلى فرجه أفياض، دخلنا عند نهايتها العليا، ثم تسلقنا وادي طلح الكثيف الشجر وهو غابة حقيقية من أشجار الطلح وكان العديد من الضأن يرعى في ظلها الوافر الشائك. كما كان صقر طلحة، إلى البعيد في السماء، من أمامنا، يحلق في عظمة باحثاً عن فريسة، حينما انطلق سرب من طائر الغداف الصحراوي، مهاجماً في شجاعة الصقر الأعظم ومن كل الجهات حتى هرب الصقر عاجزاً وقد لاحقه غداف واحد ليودعه. ولقد كان لونه، حسب ما استطعت رؤيته أنه أسود البطن، ومبيضاً مع بعض العلامات البنية على الظهر.

كنا مرة أخرى على درب الفيل من عند طلحة وما علاها، ولا تزال آثار سيارات الأمير سعود واضحة عليه. ثم ينقسم الوادي قليلاً إلى الأمام ليحتضن تلاً يقع في وسطه، ثم يضيق من خلفه التل إلى حوالي ٥٠٠ ياردة بين سفحين أملسين من شست أسود يكسوه عشب جاف في كثافة. ثم يضيق الوادي مرة أخرى إلى ١٠٠ ياردة بين جلاميد عالية شديدة الانحدار، وهو يتعرج ويتلوى وقد نمت عليه أشجار الطلح بكثافة، وقد قادتنا علامة المياه المألوفة المسجلة على جدار

الصخرة إلى الثقب المائي المسمى غمر الطلح الذي يقع في البطن الرملي للمجرى. لقد كان فم الصهريج مبنياً من الخشب ومن قطع الحجارة وإلى عمق ٣ أو ٤ أقدام غير أنه لا يحتوي على الماء إلاَّ بعد السيول. كما يوجد ثقبان مائيان مماثلان في هذا الجانب من المجري كان أحدهما عديم الماء في هذا الوقت، بينما احتوى الآخر على قليل من المياه. كما كان على أسطح الصخور بالقرب من هذين الموقعين للمياه عدد من النقوش الثمودية، وهذا يبرهن على أنها مواقع كانت معروفة لدى الأقدمين. وقد آوت الصخور عدداً من الأرانب البرية، بينما نما مزدهراً في بطن المجرى نبات القر الشبيه بالدفلي، الذي يحتوي على سائل لبني.

استمر المضيق في تخصره أكثر ونحن نصعده، وقد وصل عرضه في بعض المناطق إلى ٣٠ ياردة وكانت على جانبيه صخور شديدة الانحدار ذات لون أسود مزرق ولربما كانت من الشست. وأقبل من جهة اليسار رافدان هما محدثي وقررا وفيما يلي موقع تدفق الثاني منهما يوجد ثقب مائي آخر جاف من هذه الثقوب المائية ويستخدم مصطلح غمر لمثل هذه الظاهرة. بدأ المجرى ينفتح قليلاً في هذا الموقع وذلك لاندماج الصخور على الجانبين مع سفح يرتفع إلى ١٥٠ أو ٢٠٠ قدم الذي صعدناه تدريجياً إلى هضبة يصل مستوى ارتفاعه إلى ٧١٠٠ قدم فوق سطح البحر. ويتصل في هذا الموقع مجريان هما شعيب الهسرج من ناحية الغرب، وشعيب مختلف من ناحية الشمال الغربي ليكونا معاً رأس وادي طلح في أرض قليلة التموج واسعة، من فلسبار أحمر، منتشر فوق صخور وجلاميد فوق أرضية من مادة مماثلة يجري تحتها الشست التابع للوادي الذي نسير عليه. كان خط التماس من الاثنين مستقيماً جداً ومحدداً، ويبدو أن الشست التحتي والفلسبار كانا على شكل عمودي.

واصلنا مسيرتنا أعلى مجرى مختلف عبر أرض كثيفة الأشجار. عليها العديد من أشجار الطلح. كان المنظر مماثلاً للمناطق التي تحيط بالطائف، غير أن طريقنا ابتعد بعد فترة عن المجرى الضحل الذي يواصل سيره شمالاً إلى رأسه في مجموعة من التلال (فلسبار أو جرانيت) على بعد ثلاثة أميال. ثم اتجه طريقنا ناحية الشمال الغربي، ناحية درب الفيل بتتبع مختلف، فوق أرضية الهضبة الفلسبارية والتي بدأ ينتشر فوقها البازلت ونحن نقترب من سلسلة بركانية تقع أمامنا تتكون من قمم مرخ والعود وهومين سوداوين صغيرين بلا اسم، لقد أبرزت هذه السلسلة من الوحدات البركانية بوضوح ليس فقط القلنسوة العليا البازلتية التي يبلغ سمكها ١٠٠ إلى ١٥٠ قدماً بل أيضاً طبقة الصخر التحتي (مغر) أو البكسيت، الذي يبلغ عمقه ٢٠٠ إلى ٣٠٠ قدم والذي يعتقد أنه يعلو الجرانيت الذي بدوره يغطي الشست. ويبدو أن الطبقة العليا من المغر تجري في خط مستقيم من حولنا ونحن نقترب من الدائرة. وقد أمكننا رؤية رأس ممر شراغب من هذا الموقع ناحية الجنوب الغربي، والذي هبطنا من عنده عند عيفه إلى مجرى حمرة، ويقع بينهما الحاجز الرئيس وهو السلسلة البركانية المسماة قعمة الحمرة التي تلتف لتقابل كلاً من العود والمرخ وقد ورد ذكرهما. لقد كونت هذه – بعد مسافة في نهاية مسيرتنا – الجانب من طريقنا الذي يتجه الآن ناحية الغرب ولمسافة تزيد عن الميل الواحد ناحية الشمال، وسرعان ما عبرنا مجرى ذات العكي وهو ينحدر من سفوح المرخ ليتصل مع الهسرج الذي يقع بعيداً على يسارنا.

تفرقت حميرنا بعد هذا التقدم لقافلتنا بانزعاج وانتشرت فوق المكان وهي ترفس وترتج وكأنما أصابها الجنون، وذلك بسبب ذبابة واحدة. لقد كانت ذبابة لاسعة، فقد لسعت ثلاثة من الحمير أسفل الذيل، الواحد بعد الآخر وكانت النتيجة كما قد وصفت. كان علينا أن نتوقف، بينما أعد ابن دهيش هجوماً مضاداً

على العدو الذي انسحب آخر الأمر تاركاً الميدان تحت سيطرتنا التامة. ثم واصلنا مسيرتنا مارين بقطيع ضخم من الضأن يمتلكه آل غازي سنحان، والذين يملكون بلاد حمرة من عند الشريط الذي تم وصفه بالتفصيل في فصل سابق.

بدأنا دخول الفجوة عبر السلاسل البركانية الخارجية التي يكونها وادي حجلة الذي ينحدر من الجانب الجنوبي لكتلة قعمة القلح ليدخل في نهاية الأمر إلى حسرج. لقد كان عرض الفجوة في هذا الموقع حوالي ميل واحد أو أكثر قليلاً، ويقع مجرى حجلة إلى يسارنا على بعد ٥٠٠ ياردة كما تقع سلسلة العود على يميننا إلى ضعف هذه المسافة، ثم يضيق الوادي سريعاً إلى حدود ٥٠٠ ياردة، وتقع حجلة في وسطه قريباً من طريقنا، ولقد ضاق الوادي بعد نصف ميل إلى ٥٠ ياردة فقط، وقد ظهرت كتل البازلت على جانبيه بارتفاع ٤٠٠ قدم. صار السفر الآن صعباً جداً على ضفة الوادي اليسرى وكان علينا أن نهبط إلى بطن الوادي الذي بدأ يتعرج بين الجدران التي ارتفعت إلى ١٠٠ قدم وكانت من جرانيت تعلوه ركام حجارة. واستدرنا الآن في اتجاه عام إلى شمال الشمال الغربي ووصلنا إلى رأسي حجلة، جاء الرأس الذي على اليمين من عند قعمة القلح، بينما هبط الثاني الذي سلكناه من عند الأرض الصعبة التي تفصله عن الجانب الأيمن لوادي رحة. كان علينا أن نصعد خارج المجرى، لندور حول حاجز صخري يكون سداً عبر المجرى الضيق، وذلك بتسلقنا لممر منحدر صعب.

ولندخل مرة أخرى إلى الوادي فيما يلي هذا العائق. كان بطن المجرى في هذا الموقع من صخور جرانيتية تعلوها طبقة رمل خفيفة وكسور بازلتية. ثم وصلنا سريعاً إلى شريط من برك صخرية في منخفضات أرضية الوادي، مع حركة خفيفة لسيلان الماء بها تصل بينها كأنها جدول، وذلك بلا شك بسبب الأمطار الأخيرة

التي لم تصرف مياهها كلها بعد. لقد قررنا أن نتوقف هنا للراحة بعض الوقت ولتخفيف شدة حرارة الظهيرة.

انقسم المجرى مرة أخرى فيما يلي هذه البرك إلى رأسين، وقد تتبعنا الفرع الأيسر الذي يقود غرباً عبر مساحة معتبرة من نبات الحلفا وغطاء نباتي آخر، والذي في وسطه وصلنا إلى بئر آخر مؤقت، أو هو ثقب مائي يعتمد على الأمطار الأخيرة لتغذيته. ثم صعدنا مرة أخرى إلى البازلت، الذي يعلو الجرانيت عند ارتفاع يصل إلى ٧٦٠٠ قدم في أرض مضطربة، تكون الكتوف لقعمة القلح تجاه وادي رحة. وتشبه مستنقعاً ضخماً تصرف مياهه بمجاري عديدة إلى حجلة. كانت قمة هذه الأرض حوالي ١٠٠ قدم فوق البئر في مضيق يفصل بين الكتف وبين الكتلة الرئيسة، والذي من عنده هبطنا الآن تجاه وادي رحة في اتجاه غربي.

واصلنا هبوطنا على الجانب الآخر، بعد أن مررنا برأس الحوض المنخفض المليء بالشجيرات، الذي يبلغ عرضه ١٠٠ ياردة ويسمى حلة مسعود وبه كل من قرية آل مسعود الصغيرة تجاه أسفل الوادي من عند موقعنا وآل مجلم عند ملتقاه مع رحة تاركين قرية آل مسعود على مسافة ٣٠٠ ياردة إلى يسارنا وحلة آل الخرج إلى البعيد على الجانب نفسه. ثم خرجنا من الحوض إلى مضيق هبطنا من عنده تجاه الشمال فوق أرض صعبة من جرانيت أسود ثم عبرنا مصرف مسيل القعمة الذي ينحدر من سفوح قعمة القلح إلى قرية آل مفارح عند التقائه مع رحة على مسافة نصف ميل إلى يسارنا. أمكننا رؤية قرى أخرى صغيرة تقع على ضفة وادي رحة، والتي نراها لأول مرة إلى أسفل من آل مفارح وهي: آل طراد، وآل صالح بن ردا، وآل زين، بهذا الترتيب إلى أسفل. لقد تضمنت هذه البلاد الكثير

من السفر الصعب، الذي أوصلنا إلى القرية المزدوجة آل أوسع في شعيب بالاسم نفسه يهبط من عند قعمة القلح. كان شعيب عطف مصرفاً مماثلاً من المنبع نفسه، مع أبنية برجية أكثر للقرية نفسها، ومن ثم دخلنا إلى ما يليها إلى حوض صرف شعيب آل باهر وهو وادٍ كثيف الأشجار وبه مجموعتان من القلاع وعدة أبراج منعزلة تابعة لقرية بالاسم نفسه تقع في وسطه، وتحيط بها حقول واسعة، كان بعضها قد ترك بغير زراعة وبعضها قد تم حرقه للبذر التالي.

انتهينا الآن من محن هذه البلاد الصعبة العدائية وسنتجه سريعاً إلى أبراج حوط التي وصلناها خلال نصف ساعة قبل الغروب. لنعسكر في بطن رحة الرملي بجوار مزارع التين بالقرية. اعترض مجرى السيل عدد من السدود من الرمل ومن الأغصان الخفيفة إلى داخل الحقول والبساتين على جانبي الوادي. لقد عدنا الآن إلى الموقع الذي مررنا به قبل ١٧ يوماً في رحلتنا جنوباً من حرجة، وكان مما يسرنا أن نعيد علاقتنا مع دليم بن دليم الذي جاء إلى هنا لمقابلتنا ومعه ابنه الشاب الجذاب، الذي يتحدث عنه الناس لحبه للرياضة. ومعه بندقية عيار ١٢ ليس معه ذخيرتها. كان دليم من الرجال الذين لا يرتشون بالنقود غير أنه سر كثيراً بإعطائي له ٥٠ خرطوشاً لابنه. لقد أعد لنا عشاءً فاخرًا، وقد قام بجهد كبير لترتيب استمرارية جولاتي في تهامة حيث امتد نفوذه ومسؤولياته حتى قرية الحقو. كانت حدوده الشمالية عند ضبة بالقرب من أبها، بينما تزاملت مسؤولياته مع مسؤوليات حاكم نجران ناحية الشرق، عبر قرن سبط، ووادي خنق - حتى شرق قرن - وحضض على الحدود اليمنية. لقد حضر هو وابنه وبعض أتباعه بعد العشاء لسماع الأخبار والموسيقى من الراديو، والتي كانت هذا المساء، إلى جانب

أخبار حرب مدريد، فإن الموضوع الرئيس الذي كان يناقش هو الصدع الذي حدث بين الملك إدوارد وحكومته وأدى خلال أيام قليلة إلى تنازله عن العرش. كان دليم محتاراً حول القيود التي يستسلم عندها ملوكنا والأهمية التي نضعها على مشاكل الزواج التي تواجه العظماء.

كانت هنالك لمسة صقيع خلال الليل إذ بلغت درجة الحرارة ٣١ درجة فهرنهايت وذلك لأول مرة منذ أن غادرنا الحرجة في اتجاه طقوس جنوبية، ولم ندفأ إلاَّ عند الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي لكي نبدأ التحرك من جديد لتنفيذ المسيرة القصيرة المخططة ذلك اليوم إلى ممر شراغب، حيث سنقضي الليلة التالية قبل نزولنا إلى تهامة. لقد اخترقنا سهلاً رملياً بعد عبورنا مجرى رحة وكانت عليه وعلى فترات مجموعات من القبور تكون مقبرة حوط، ناحية شريط أبيض لصخور مغر التي تقف أمام السلسلة البازلتية للجرف، والتي تحجب عنا في الوقت الحاضر وادي حبيت، ثم وصلنا إلى مضيق ضيق، بعد أن مررنا عبر هذا الشريط الملون جداره بالأحمر والأبيض والمكشوف في مسيل ضحل، ومن هذا المضيق هبطنا إلى وادي حبيت العريض بالقرب من قرية قعمة الصغيرة، التي تقع عند الطرف الغربي لمستوطنة آل عبدالله.

ثم وصلنا أثناء استمرارنا غرباً إلى قرية صمعه وأحواضها ذات الجدران الحجرية، أما منازلها فقد بني جزء منها من الحجر والجزء الآخر من طين المغر الوردي، مع مدرجات من شست شبية بالألواح على طراز أبها. كان عرض الوادي من كتلة جوعان وناحية الشمال، وجبل سعدي ناحية الجنوب، حوالي ميل واحد، ويجري البطن الصخري لوادي حبيت في مجرى عميق يصل عرضه إلى ٢٠٠ ياردة عند منتصفه. كما كان هنالك أشجار طلح مزدهرة على كلا الجانبين، مع كتل

من الهدال وهو نبات طفيلي ينمو فوق قممها. كان المكان مملوءاً بطائر الحجل، غير أنني كنت سعيداً أكثر برؤية زوج من طائر نقار الخشب وقد أمكنني إصابته وإضافته إلى حقيبة العينات خلال مطاردة استمرت ربع ساعة. ثم يضيق الوادي في الأعلى إلى حجم المسيل بين جدران بازلتية عالية وذلك أثناء دخولنا إلى طرف الجرف النهائي الحاجز بجوار ثقب مائي يسمى صعدة حيث الماء الدائم.

صار الطريق صعبًا جدًا، وقد سرت على رجلي معظم الوقت على الجانب الأيسر للمجرى، الذي أوصلنا إلى برك لكه في حوضه الضيق الحصوي في وسط نباتات عطرية مزهرة. ويقع فيما يلي هذه الرأس الفعلي لوادي حبيت، الذي يتكون من التقاء مسيلين هما شعيب ضفرة الذي يقبل من عند القلنسوة البازلتية ناحية شمال الشمال الغربي، وشعيب جربه الذي يأتي من عند أسفل سعدي قليلاً ناحية الجنوب الغربي. ثم تتبعنا سعدي لمسافة ميل واحد، إلى قرب رأسه في طرف سهل أخضر معشب، يكون سرجاً ضحلاً يفصل بين القسم الشمالي والقسم الجنوبي لقلنسوة البازلت، وقد كانت المسافة إلى ممر عقبة شراغب قصيرة، والتي استقر بنا المقام عليها لنعسكر على ارتفاع ٧٨٠٠ قدماً فوق مستوى البحر. وكان المنظر من حولنا رائعاً يستعرض أمامنا جبال تهامة في هذه المنطقة. استغرق سيرنا مسافة ستة أميال، مع مسيرة متقطعة لأكثر من ثلاث ساعات لنقضي خلالها المسافة بين حوط والممر وكان أول ما فعلته حين وصلنا إلى المعسكر هو أن أعدّ نفسي لنوم عميق عند الظهيرة، ولقد نمت نوماً عميقاً مدة ساعتين وصحوت وأنا مرتاح ومنتعش، وغير راغب في أي نشاط كبير.

أحسست بأن فرصة تسلق سعدي يجب ألاَّ تضيع، وعند الساعة الخامسة مساءً، بعد تسلق مرهق فوق سفحها الرفرفي البازلتي الصعب، وقفت على قمتها

ومعي مرشدي نقوم بمسح الأرض الموعودة التي تمتد أمامنا. لقد كانت القمة على ارتفاع ٥٠٠ قدم فوق معسكرنا على الممر وعلى ارتفاع ٨٣٠٠ قدم فوق سطح البحر، وكان المنظر يستحق الجهد الذي بذلناه للوصول إليه. وكان مرشدي الرئيس والمتخصص في هذه المهمة، والذي قدمه لي دليم بنفسه، واسمه عايض بن شري وهو من آل حيان تحت قسم آل سريع (تهامة) مجموعة سنحان، وكان يقوم بمساعدته رجل من الأصل نفسه إلاَّ أنه من درجة اجتماعية أقل. كانت الأحوال هنا، عند هذا الارتفاع، وعلى جبل مكشوف لطيفة بدرجة مدهشة. كما هي لطيفة أيضاً في المعسكر أثناء الليل، غير أن كلا المرشدين وهما من رجال أسفل الوادي، قد طلبا الأذن لقضاء الليل أسفل الوادي مع مواطنيهم مع الوعد بالعودة عند الفجر لنبدأ مسيرتنا.

كان منظر جبال تهامة من عند القمة على الرغم من الضباب الخفيف الذي تكاثف أكثر بالضوء المنتشر للشمس الغاربة. لقد كان مرشداي يعرفان بلادهما جيداً، وقد كانت هذه هي المرة الأولى التي أتلقى فيها فكرة أقرب إلى الحقيقة حول الأسماء الصحيحة للسمات الرئيسة للمناظر الرائعة التي تتكون من سلسلة وراء سلسلة من جبال عظيمة شامخة من فوق أوديتها إلى قمم وسلاسل ترتفع إلى ٧٠٠٠ قدم أو أكثر. ولقد كان هذا هو أفضل منظر تحصلت عليه حتى الآن. كانت قمة سعدي مثلها مثل القمم التي كنت قد تسلقتها، بسفوحها العارية التي تتبقع بأشجار الطلح الجافة، غير أنه لا يوجد أثر لأشجار العرعر. ويمكن الافتراض بأن كل هذه القلنسوة البركانية لجرف السراة الرئيس من عند قعم عبيدة جنوباً إلى علب، ومرعى والأخريات لها الخصائص ذاتها وهي الكآبة والخلو من النبات وعدم الجاذبية. تقوم جبال تهامة باعتراض معظم الرياح الموسمية الممطرة،

وتستمتع بمجموعة نباتية وبمجموعة حيوانية تحت مدارية مزدهرة في مقابل الظروف الصحراوية للهضبة وسلسلة الجرف. لم أقطع شريط تأملاتي في هذا المنظر إلاَّ قليلاً قبل غروب الشمس وها قد غربت الشمس بالفعل ونحن في منتصف الطريق إلى أسفل التل. لقد أرسلت المرشدين إلى المعسكر وجلست لأفطر على تبغ غليون كنت انتظره بكل رفاهية العزلة. وقد وجدت حجلاً، عند عودتي للمعسكر بعد نصف ساعة، وقد تم طبخه لي، وكان لحمه طرياً ولذيذاً برغم أن هذه كانت المرة الأولى لي التي أتناول فيها لحم طائر كان قد قتل بالرصاص ليصير عينة متحفية. لقد تخلصت الآن تقريباً من قروحي وقد أحسست بالعافية في هذا المساء بالذات، والشكر يعزى لفترة الراحة الطويلة ولتسلقي التل الذي تلي تلا الراحة.

انقضت من رمضان الآن عشرون يوماً، وبقيت عشرة أيام ولم أذق فيها الماء حتى الآن. لم يؤثر ذلك على الصيام تأثيراً ضاراً، غير أنني أحس بالرغبة في النوم عند الظهيرة، وقد اعتدت على السهر في كل الليالي حتى الساعة الواحدة صباحاً أكتب مذكراتي وأحلل ملاحظاتي، ثم أنام حتى الساعة ٤,٣٠ حين نستيقظ لتناول السحور قبل الفجر، وعند الساعة ٥,٣٠ أعود مرة أخرى إلى النوم حتى الساعة الثامنة، وحينها أصحو على حركة زملائي وهم يتهيأون لبداية مسيرة يوم جديد.

كانت لدينا هذا المساء الميزة الإضافية لمناسبة عظيمة فقد كان معسكرنا يقف على قمة رأس العالم، والتي من عندها ألقيت نظرة في الصباح على الجبال وقد التحفت الضباب الخفيف الذي تخللته ألوان مختلفة بأشعة الشمس القادمة. ارتفعت طبقة من سحب خفيفة فوق البحر البعيد، والذي – حسب ما رواه مرشداي – لا يمكن رؤيته مطلقاً من هذا الموقع. لقد رأيت بعيداً ناحية الجنوب

في وقت صلاة الفجر، نجم صليب الجنوب لأول مـرة هذا الشتاء. ثم هبت علينا رياح جنوبية شرقية باردة مدة ساعة عند منتصف الليل إلاَّ أنها سكنت مع الفجر، وكانت لطيفـة جداً، كانت أدنى درجة للحرارة أثناء الليل ٣٥ درجة فـهرنهايت أو قريباً من ذلك.

لقد أمـضيت الساعـات الأولى من الصباح، قـبل أن نبدأ المسيـرة، في آخر جولة من زوايا المزواة على النقاط الرئيسة التي تمت ملاحظتها من عند قمة سعدي في اليـوم السابق، تحـسباً لأن تـكون اتجاهات بوصلتي في ذلك المكان قـد تأثرت بظاهرة المغناطيس في الصخور البازلتية المزعـجة جداً في كل هذه البلاد البركانية. لقد كانت هنالك اختلافات بين القراءتين.

لقد احتضن المنظر مـن قمة سعدي إطاراً واسعاً من هذه البـلاد الجبلية، ممتداً من سلسلة تمنية بجـوار أبها تجاه غرب الشـمال الغربي عبـر زهوان (جبل الريث) وسلسلة سحاليل إلى قمم كل من حشر وطلان وظهران حاجـبة فيفا نفسه، ومنها إلى الحرف مـرة أخرى إلى الجنوب من موقعنـا. يمكن رؤية مسيل شعـيب قرض وهو يهبط من قرب رأس ممر شراغب، بينمـا من جهة الجنوب من سعدي – على مسافة الميلين – يجري مسيل مشابه يسمى ضعان إلى أسفل ليقابله بالغرب مشرب العـينة، وهو أول أهدافنا في تهـامة. مـسيل ثالث من عـند الجرف قليـلاً ناحيـة الجنوب من ضعان، واسـمه رحة، ليتصل مع المسـيلين الآخرين بالقرب من الموقع نفسـه. يقبل مـسيل رابع من عند الجـرف فيمـا يلي قرض (إلى شـماله) واسـمه سححة بينما يرسل بازلت مصقوع مـسيل حده ليتصل مع المجرى الرئيس، واسمه عطف ويقع أسفل عـينة حيث يدخل رافـد حرره من عند التلال ناحـية الجنوب. يكون هذه المسايل للجـرف رأس وادي بيش، وهو خط الصرف الرئيس لكل بلاد

تهامة التي تواجهنا غيـر أن التسمية المحلية تصنفها إلى أقسـام مختلفة، لكل منها اسمه الخـاص به. فمثلاً يتـخذ عطف الذي يبدأ عند سفح الجـرف الفعلي، اسم فرشه الذي يجـري داخل لحج، الذي يصبح اسمه رحـة والذي بدوره يتحول إلى بيش. علينا الآن أن نعـبر أسـفل كل هذا النظام حتى نصـل إلى البحـر، بعد أن انتهينا من الهضبة العظيمة ومن جرفها.

obeikan.com